

قراءة فكرية في السيرة النبوية

لم تكن الدعوة الإسلامية في بدايتها مجرد دعوة دينية محدودة، بل كانت مشروعاً حضارياً يهدف إلى تحرير الإنسان من الظلم والخرافة والعبودية الفكرية والاجتماعية.

ولهذا واجهت مقاومة شديدة من المجتمع الجاهلي، الذي رأى في الإسلام تهديداً مباشراً لمصالحه الاقتصادية ونفوذه ومنظومته الثقافية. وقد تنوّعت وسائل المقاومة ضد النبي ﷺ وأصحابه؛ بين التعذيب الجسدي، والحرب الإعلامية، والمقاطعة الاقتصادية والاجتماعية. إلا أن السيرة النبوية قدمت نموذجاً فريداً من الصبر الواعي، والثبات الأخلاقي، والقدرة على تحويل المحن إلى فرص لبناء الإنسان والمجتمع.

لقد أدركت قريش منذ اللحظة الأولى أن الإسلام لا يغيّر العقائد فقط، بل يعيد تشكيل الوعي الإنساني؛ لذلك حاولت إيقاف الدعوة عبر أساليب القمع المختلفة. وكان التعذيب من أبرز تلك الوسائل، حيث تعرّض المسلمون الأوائل لألوان من الأذى النفسي والجسدي؛ فقد عذّب بلال بن رباح تحت حرارة الصحراء الحارقة، واستشهدت سمية بنت خياط **وزوجها ياسر** تحت وطأة التعذيب، وتعرّض آل ياسر لأشدّ أنواع القهر.

لكن اللافت في السيرة أن النبي ﷺ لم يُربِّ أصحابه على الانتقام أو الانهيار، بل ربّاهم على الصبر المرتبط بالمعنى الإيماني؛ فالصبر في المفهوم النبوي لم يكن استسلاماً للواقع، وإنما كان قوة داخلية تحفظ الإنسان من السقوط النفسي والأخلاقي.

لذا يمكن فهم هذا الموقف بوصفه بناءً للإنسان المقاوم، الذي لا تكسره الظروف ولا الضغوط.

فالتعذيب اليوم لم يعد دائماً بالسياط والقيود، بل قد يكون عبر الإقصاء، أو التشويه الإعلامي، أو الضغط النفسي، أو محاصرة الإنسان في رزقه وفكره. ومن هنا تصبح السيرة النبوية نموذجاً خالداً في صناعة الثبات النفسي والتمسك بالمبدأ مهما اشتدت الأزمات.

وإلى جانب التعذيب، استخدمت قريش سلاح الدعاية الجاهلية لمحاربة النبي ﷺ، فاتهمته بالسحر والكهانة والشعر والجنون، في محاولة لتشويه صورته أمام الناس ومنع انتشار دعوته.

وكانت تلك الحروب الإعلامية تعبيراً عن خوف قريش من تأثير الرسالة الجديدة في العقول والقلوب. وهذه الصورة تتكرر في أيامنا هذه بأشكال متعددة، من التضليل الإعلامي، وصناعة الشائعات، وتزييف الوعي الجماهيري.

لكن النبي ﷺ واجه هذه الدعاية بمنهج مختلف؛ فلم يعتمد على الصخب والانفعال، وإنما واجه الكذب بالحقيقة، والإساءة بالأخلاق، والتشويه بالقدوة العملية. لقد كانت شخصيته ﷺ أقوى من كل حملات التشويه، لأن الناس كانوا يرون فيه الصدق والأمانة والرحمة.

وهنا تقدم لنا السيرة درساً مهماً، وهو أن المعركة الفكرية لا تُحسم بالشعارات وحدها، بل بالمصداقية والسلوك العملي وبناء الوعي العميق.

وهناك وقفة أخرى؛ فحين فشلت قريش في القضاء على الدعوة بالتعذيب والدعاية، لجأت إلى سلاح المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية، ففرضت حصاراً على بني هاشم والمسلمين في شعب بني طالب، ومنعت عنهم الطعام والتجارة والعلاقات الاجتماعية. وكان الهدف من المقاطعة تجويع المسلمين وعزلهم نفسياً واجتماعياً حتى يتخلّوا عن دعوتهم. إلا أن هذه المحنة كشفت قوة التضامن الداخلي بين المؤمنين، وأظهرت أهمية التكافل الاجتماعي في مواجهة الأزمات.

لقد تحولت المقاطعة من وسيلة لإضعاف المسلمين إلى تجربة عززت وحدتهم وصبرهم، وأثبتت أن المجتمعات التي تمتلك قيم التعاون والإيمان تستطيع تجاوز أصعب الظروف.

وفي حياتنا اليوم تتكرر صور الحصار والمقاطعة بأشكال سياسية واقتصادية وإعلامية، ما يجعل السيرة النبوية مصدر إلهام لفهم كيفية مواجهة الأزمات بروح جماعية متماسكة، بعيداً عن اليأس والتفكك.

إن القراءة الفكرية المعاصرة للسيرة النبوية تكشف أن انتصار الدعوة لم يكن قائماً على القوة المادية، بل على بناء الإنسان المؤمن الواعي، القادر على مقاومة الضغوط والاضطهاد والتعذيب، ومواجهة التضليل، والصمود دون أن يفقد إنسانيته وأخلاقه.

ولذلك تبقى السيرة النبوية مشروعاً تربوياً وحضارياً متجدداً، يقدم لكل عصر دروساً في الحرية والوعي والثبات، ويؤكد أن القيم العظيمة قادرة دائماً على الانتصار مهما اشتدت حملات القمع والتشويه.

كتبه لإذاعة المكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير

مؤنس حميد – ولاية العراق